

ذهني ، فكنت ما بقي عالقاً به وجملت غرضي أنت أدون ما رأيت وما سمعت ، وأسجل ما أحسست به وشمرت ، من غير أن أعمد إلى كتاب من كتب التاريخ أو رحلة من الرحلات ، فأخذ منها الفصول والأخبار والأرقام ، وأن أعرض على القارئ صورة من الحياة البدوية ، إذا هي لم تكن عيطة شاملة ، ولم تكن كافية واقية ، فهي صحيحة ثابتة ، ليست متخيلة ولا مبالغاً فيها ، فإن أحسنت فله الحمد ، وإن أسأت فالذنب على من سرق (دفتري) عفا الله عنه وسامحه

وبعد ، فهذه رحلة كشفية سلخنا فيها شهرين اثنين وقطعنا فيها خمسة آلاف كيل في الصحراء... وركبنا فيها من الأحوال ورأينا من العذاب ما لو سردناه وفصلناه لكان أشبه شيء بالأساطير

ولم تكن هذه الرحلة من أجل التسلية أو النظر في عجائب الخلوقات وغرائب البلدان ، ولا للكسب والتجارة ، ولا لشيء مما يرحل أفراد للناس من أجله عادة ، بل كانت لمصلحة عامة ، وغاية اجتماعية ، تعود على بلاد الشام وأرض الحجاز بالخيرات الجمّة والفوائد الكثيرة ، هي فتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة يسهل على الناس أمر الحج ويرغبهم في أدائه ويوفر عليهم صحتهم ومالهم . ولم تكن هذه الرحلة واحدة يهتّم به أهله وأصحابه ، ولا جماعة يعني بهم أقرباؤهم وذووهم ، ولكنها رحلة وفد من وجوه الشاميين وسراةم وتجارهم . وكان للشاميون جميعاً يتبعونهم بأفكارهم ويرافقونهم بقلوبهم وينتظرون للبرقيات منهم ويتسقطون أخبارهم ، فإذا انقطعت أياماً انتشر للقلق وساد الدهر وهاجت الجرائد ، وأقبل الناس يسألون عن أبتائهم وإخوانهم... فتهتم لذلك حكومة الشام ومملكة الحجاز ، ثم لا ينقطع للقلق ولا تسكن للنفوس حتى يبرف خبر الوفد ونجى منه برقية أو رسالة

وكان أول مهدي بهذه الرحلة أن يقيني الشيخ ياسين الرواف المتعمد السابق للملكة للمريية السمودية في دمشق ، فقال لي : لقد عزمنا على اختراق الصحراء إلى المدينة ، نكشف طريقاً للزوار برياً ، فهل لك في مرافقتنا ؟

إلى أرض النبوة !

[وصف وتاريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز ربيع ١٩٣٥ لفتح طريق الحج البري لسيارات]

للأستاذ علي الطنطاوي

—♦—♦—♦—

حين تصل هذه المقالة إلى الرسالة ، يكون الركب الذي خرج من دمشق منذ أسبوعين يؤم الحجاز قد شارف المدينة إن شاء الله . وهو أول ركب من الزوار يسير على الطريق الذي كشفناه ، وفيه قرب من ثلاثمائة رجل وامرأة ، ووصوله سالماً إلى المدينة ، وذلك بفضل الله مؤكداً ، هو الثمرة الأولى لرحلتنا الكشفية التي رحلناها في ربيع سنة ١٩٣٥ . ولقد كان أول ما خطر على بالي حين دعيت إليها وضع كتاب عنها ، فكنت أنابط دفتري دائماً ، فلا نسلك طريقاً ، ولا نقطع وادياً ، ولا نرى جبلاً ، إلا كتبت اسمه وصفته ، وطبيعة أرضه ؛ ولا يمرّ عليّ قوم إلا سألت عن أنسابهم وأحوالهم ، ووصفت مساكنتهم ، وذكرت ما عرفت من عاداتهم ، وسمعت من لغاتهم ؛ ولا يتنا ليلة إلا ذكرت كيف حططنا الأحمال ، وكيف نهضنا للارتحال ؛ ولا أرى منظرآ ، أو أشهد مشهدآ ، إلا ذكرت أثره في نفسي ، وما أثار فيها من عاطفة ، أو هاج من ذكرى ، على ضبط في الأرقام ، وتجرّ في جمع الأخبار ، وتوثق من صدق الراوي وخبرته ، حتى إذا دنونا من المدينة وأوفى الكتاب على السكّال ، وقارب النهاية ، امتدت إليه يد لا يلمها إلا الله فذهبت به ، فأيسمت منه وأهملته ، وجملت لا أكتب شيئاً ، ولا أدون خبرآ ، إلا ما كان من وصف طريق للمودة فهو مكتوب عندي ، وما كتبت من المقالات في مجلة الرسالة أو في غيرها . وعدت إلى دمشق فانغمست في عملي ، ثم ضرب الدهر ضرباته فسافرت إلى المراق أولاً وثانياً ، وعملت سنة في لبنان أدرس فيها ، وحسبتي نسيت الرحلة ونسبها الناس ، حتى كان هذا الشهر وحقق الله ما ذهبنا إليه ، ورأت دمشق اليوم الموهود ، فسافرت أول قافلة من الزوار ، وألح على الأصدقاء ، وأعادوا للطلب مني أن أنشر وصف تلك الرحلة ، فأجبت مكرهاً ونقصت

وصرت أيام ثم لعيني الأستاذ الرواف كرة أخرى فقال لي :
هلم فقد تقرر موعد للسفر

فأسقط في يدي ووقمت بين مشكنتين : مشكلة الوعد ،
ومشكلة الوظيفة . فلا أنا أستطيع أن أضحى بوظيفتي ومنها معاشي
ومعاش أمرتي ، ولا أنا أستطيع أن أخلف وعدي . ولو أني
وعدت غير الشيخ ياسين لمان الأمر ، ولكن الرجل مجدي
سلقى لا يعرف من كلمة نعم إلا أنها وعد مبرم لا يحله إلا الموت؛
فأخترت الوفاء ولو خسرت الوظيفة وقلت له : أنا حاضر !

ثم يسر الله فسمحت لي الوزارة بالسفر ، وذهبت أعد الجواز.
وجملنا كلما أزمعنا السفر، وودعنا الأهل والأصحاب، عرضت لنا
الوانع ، فأخترنا حتى نخرجنا واستحينا من الناس لكثرة ما نزم
ثم نقم ، وكان أكثرنا قد أطلع عن حلي لحيته ليوفرها ، ويجمع
منها حلية كبيرة ، لما ظنوه من أن الرجل هناك بلحيته ،
فكلما كان أطول حلية كان أعلى مقاماً . . . فكانوا يأسفون عليها
وبضنون بها على الخلق ، ويستحيون أن يواجهوا للناس بها ،
لأن هذا الزمان جعل المعروف من اللسنة متكرراً يستحيا منه ،
والنكر من البدعة معروفًا يفتخر به . ولبئنا على ذلك أياماً ،
ثم عزمتنا للزمة الأخيرة ، فبيدنا ثقلنا في المرأب (الكاراج)
حتى نندو مسافرين . فلما حملناه ورآه أصحابنا وجيراننا ، جاؤوا
يودعوننا الوداع السابع ونحن لا ندري أهو الوداع حقاً ، أم ستقيم
بمده أياماً وليالي أم لا نساfer أبداً

كنا في المرأب مع الفجر ، وجملنا ننظر حتى طلعت الشمس ،
وكان للضحى ، وأذن الظهر ، وكان للمصر ، فأيسنا ، وهمنا
بالانصراف ولكن السيارات حضرت ، وتحقق الرحيل ، وكانت
أربما من طراز (البويك) وواحدة من (الناش) . وقد رفموا
على السيارة الأولى علماً سمودياً ، وعلقوا في صدرها لوحة
كعبوا فيها « الوفد السوري لاكتشاف طريق الحج البري » .
وسرنا وسار وراءنا المودعون في قطار من السيارات الكبيرة
ماله آخر يعرف ، حتى لقد ظننت أنهم لم يدعوا في البلد سيارة
إلا استاقوها ، واخترق الموكب المدينة مهلاً مكبراً تهتز
له الأرض ...

ولم أكن قد أيقنت بالسفر إلا في تلك اللحظة . فلما تصورتي
كيف أفارق أهلي وموطني ، وأطوح بنفسي في هذه الصحراء

قلت : نعم ، ومضيت في سبيلي وأنا أراها أمنية من الأمان
وأعلم أن بضاعتنا إنما هي الكلام ، وأن الوفد لن يسافر ،
والطريق لن يفتح ، ولذلك قلت له نعم ؛ وأجيتني إلى السفر .
وهل كان يعني أن أقول له غير ذلك ؟ تصور بالله مسلماً يستقبل
لثبيت خمس مرات كل يوم ، ويحين إلى هاتيك المعاهد ، ويرى
زيارته منيته ومبتغاه ، وحرهبياً يحب للصحراء ويعرف أخبارها ،
ويحفظ آدابها ، ثم يدعى إلى قطع الصحراء وزيارة الحرم ، هل
يقول لا ؟ هل يرفض الوقوف أمام الحجر الشريفة ، والتقيام
في الروضة ، والصلاة حيال للكعبة ، والشرب من زمزم ، والسمي
بين الصفا والمروة ، وزيارة هاتيك البقاع المباركة التي ولد فيها
الإسلام ودرج ، وطاش فيها سيد العالم صلى الله عليه وسلم ، ويأبى
أن يخالط العرب في أرضهم ، ويعرفهم في ديارهم ، ويرى عياناً
ما كان يقرأ خبره في الكتب ، ويسرف أخباره على السماع ؟

ولقد كنت أعلم أن هذه الرحلة جراءة على الموت واقتحام
للخطر ، وهجوم على للصحراء الهائلة التي طالما ابتلمت من أم
وأبادت من جيوش ، ولكن ذلك كله كان يرغبتني في الرحلة
ويحببها إلي ، لما ركبت في طيبي من حب المناصرة والإقدام ،
ولأنها درس من دروس الحياة لا أجده كل يوم ، هذا الدرس
الذي من فصوله الصبر والجراة والحزم والعزم والوحدة والنظام ،
يحتاج إليه كل شاب ينشأ في بلاد ليس فيها نظام عسكري كالبلاد
الشامية ؛ وأن للشبان الذين ولدوا في الحرب للامة أو قبلها
بقليل قد فقدوا لطول ما نشأوا على للنم وتقلبوا في الترف طرفاً
من الرجولة ، وغدوا لنا وجدوا من السلامة وقعدوا من
المصاعب يميلون إلى التطرقي والتأنت ، ويخشون الخروج من
المدن وسهائون الحياة في الريف ؛ حتى أن إخواننا من المعلمين
إذا أجم أحدهم بالانتقال إلى قرية من القرى فكأنما أمر بالانتقال
إلى جهنم . وما ذلك لسوء عيش القرى فليس في القرى إلا صحبة
الأجسام وصفاء النفوس وجلاء النظر وراحة الفكر ، بل لأنه
لا يجد في القرية (قهوة) ندبياً فاسد الهواء مسدود الأبواب ،
يجتمع فيه مائتان أو ثلاثمائة على نفخ الدخان ، وقرع للترد ،
وحديث كأنفه ما يكون من الحديث ، ونكات كأنقل ما يكون
من النكات - ولو أن للشباب أنفوا المناصرة وركوب الأهوال ،
لما كان من ذلك شيء